

التجمع العالمي لفرق السيدة – فاطيما 2018

التأمل الثاني

"سافر الابن إلى بلد بعيد فبدد ماله هناك"

الطريقة التي يشغل فيها كل منا الوسط المحيط به تعبر بشكل جلي عن عالمه العاطفي وعن قناعاته. هذا ما لا يمكننا تجاهله. فأن تكون في الداخل أو الخارج، قريباً أو بعيداً، يحمل معنى يتجاوز البعد الجغرافي، إنه معنى رمزي ووجودي ومعنوي أيضاً. لنتساءل في هذا الصباح، في صلاتنا، أين نحن؟ أين أنا وأين كلانا كزوجين؟ أي مكان اخترت أن أسكنه في محيط عائلتنا؟ في أي مكان اخترنا السكن؟ هل "كوننا في الداخل" يشكل بالفعل التزاماً حقيقياً وخصباً؟ هل ساعدنا على تحقيق التفاهم بيننا الوحدة التي تميز الحب أم سمحنا لأنفسنا بأن نكون شركاء في التفرقة التي تسبب الوهن؟ إن الجملة التي نقرأها في مثل الابن الضال والتي تقول "سافر الابن إلى بلد بعيد فبدد ماله هناك" (لوقا 15 / 13) تقدم لنا إضاءة كافية لكي نفكر في ذواتنا.

لنتمعن في هذه الجملة المختارة لهذا اليوم: "سافر الابن إلى بلد بعيد فبدد ماله هناك". الغريب في المثل أن يسوع لم يهتم لأن يقدم الأسباب التي دعت الابن ليتخذ قراره بالرحيل. يحمل كل كائن بشري في أعماقه معاناة تظل قائمة وعجزاً متوارثاً وجرحاً غير ملتئم وهجراً لا يزال مؤلماً، وهي أمور بدل أن توجهنا إلى مركز أحاسيسنا الذي يمكن أن يشفيها، تفاهم في عزلتنا حيث يصبح الجفاف والضعف أكثر تجذراً. وعلى غرار ما يبينه القديس بولس في رسالته إلى أهل روما، يحدث لنا في أحيان كثيرة أن لا نفعل الخير الذي نراه بوضوح ونستسلم بدل ذلك إلى سلطان الشر الذي نكرهه (روما 7 / 19). علينا أن نقبل متواضعين هذا التناقض القاسي الموجود في حياتنا.

لماذا رحل الابن الضال؟ لم يقدم المثل السبب. أعتقد أن الأسباب العميقة لهذا الابتعاد، والتي يمكن أن نعاينها في ذواتنا، ليست واضحة تماماً إنما يمكن أن نستشفها. قد تكون ناتجة عن مجموعة من الأمور: عطش لإثبات الوجود لا يروى، ورغبة في الاستقلالية والفردية، وفي الوقت ذاته شعور أكال بعدم الأمان، ونقص وانجذاب إلى الحلول السهلة، وهروب. وهذا الألم البشري بامتياز نجده معبراً عنه أحسن تعبير في الأعمال الفنية الشهيرة.

أذكر مجموعة من منحوتات مايكل أنجلو أثرت في أشد التأثير. أسماها النحات "العبيد". القاسم المشترك بينها أنها كلها أعمال غير منجزة. لقد تركها مايكل أنجلو وهي في بدء تشكلها، كما لو أن عملية اقتلاعها من الحجر كانت مكرسة لتظل قيد الإنجاز. ولكن ما نراه فيها مدهش للغاية. في هذه الأجساد المطبوعة بالمأساوية والمسجونة إلى الأبد في اللاشكل، يوجد ما يشبه الصرخة الجبارة التي تصل إلينا وتصدمننا. إنهم يصارعون للتحرر من سجنهم الذاتي. وهذه الحالة الناقصة وهذا الإنجاز المبتور الذي يعبر عنه بالصراع والتوتر، وبالضرورة والرغبة، إنما هما رمز لحياتنا. هناك الكثير من الأمور التي نفعلها من دون أن نتمكن من تبريرها اللهم إلا في إطار هذا التشنج المؤلم الكائن في البناء اللامتناهي لما نحن عليه. يوجد بالتالي جزء من قصة الابن الضال نفهمه بسهولة لأنه يعيننا كلنا.

وهنا نتساءل: ماذا يعني أن نحب؟ أن نحب يعني أن تشارك الآخر هذا الجزء من الألم وهذه الصرخة الصامتة المكبوتة في أعماقه، من دون أن تدينه وبكثير من الرجاء. وأن نحب يعني أن تكون مستعداً للانتظار الآخر من دون شروط. وأن نحب يعني أن تقدي بسلبية الأب في المثل،



وهي سلبية لا علاقة لها بعدم الاهتمام حيال خير الآخر بل هي طريقة للدخول في حوار مع الجرح الذي يحمله والذي يكيّفه، بيد أن الحل لا يمكن أن يكون فورياً. والنقطة المؤكدة التي تميز من يحب هي أنه لا يتخلى أبداً.

عسى أن يتماسك الزواج بهذا الشكل. لا يمكن أن نتوقع أن نجد بين الزوجين أشخاصاً كاملين. وليس نادراً أن يكون الحاجز أمام السعادة مرده متابعة مثالية لكمال نظري بدل الاعتراف بأشخاص حقيقيين مكونين من لحم ودم. ولا توجد عائلات ليست مجروحة، فجميعها أصابتها المعاناة فحملت صليباً أكبر من مقاومتها أحياناً. الله لا يتخلى عنا، وهو يساعدنا على الاستمرار انطلاقاً من كل شيء. فإذا ما اعتمدنا على الله، سيكون كل شيء نعمة.

ولكن كلمة الإنجيل، " سافر الابن إلى بلد بعيد فبدد ماله هناك " تدعونا إلى مراجعة حياتنا، لأنه من السهل جداً أن لا نرى ما هو جوهري. من السهل جداً أن لا يرى أحدنا الآخر في العلاقة الزوجية. وبدون عمل مستمر في التنبه لواقعنا، سوف نصبح سجناء الروتين وسنسلم حياتنا للقيادة الآلية وسوف نفقد بالتدريج القدرة على تفعيل أبعاد الحب العميقة. علينا أن نتساءل نحن أيضاً إن لم نكن نبذّر كنزنا. يحدث هذا حين نقصي حياة العائلة خلف أولوياتنا. نقول نظرياً بأن العائلة هي الأكثر أهمية غير أن أفعالنا تناقض ذلك. وعلينا أن نتساءل إن كنا نبذل جهوداً فعلية في إعطاء قيمة لحياتنا العائلية بتقديس وقتنا المخصص لها بدل تبديد الفرص التي يهبها الله لنا في كل يوم. إن مغامرة الزواج هدية مدهشة. لنعتبرها بمثابة دعوة ورسالة نحن مدعون هنا لتجديدها.